كأن الحر بينهم يتيم

وقال يهجو كافوراً أيضاً:

[الوافر]

أَمَـــا فـــي هَـــذِهِ الـــدُّنْـــيَـــا كَـــرِيـــمُ
تَـــزُولُ بِـــهِ عَـــنِ الْـــقَـــلْـــبِ الْـــهُـــمُـــومُ(١)
أَمَـــا فـــي هَـــذِهِ الـــدُّنْـــيَـــا مَـــكَـــانٌ
يُـــسَـــرُّ بِـــأَهْـــلِـــهِ الْـــجَـــارُ الْـــمُـــقِـــيـــمُ(٢)
تَـــشَـــابَـــهَـــتِ الْـــبَـــهَـــائِـــمُ وَالْـــعَـــبِـــدَّى
عَـــلَـــيْـــنَـــا وَالْـــمَـــوَالِـــي وَالـــصَّـــمِـــيـــمُ(٣)
وَمَـــــا أَدْرِي أَذَا دَاءٌ حَـــــدِيـــــثٌ
أَصَـــابَ الـــنَّـــاسَ أَمْ دَاءٌ قَـــدِيـــمُ(٤)
حَـــصَـــلْـــتُ بِـــأَرْضِ مِـــصْـــرَ عَـــلَـــى عَـــبِـــيـــدٍ
كَـــأَنَّ ٱلْـــحُـــرَّ بَـــيْـــنَـــهُـــمُ يَـــتِـــيـــمُ(٥)

---

(١) لا يرى الشاعر في دنياه أحداً من الكرام، والكريم مألوف مأنوس محبّب إلى النفوس تميل إليه القلوب، فهو يشكو انعدام أنموذج بشري يمتاز بصفات عالية في إنسانيته.

(٢) لا يرى الشاعر كذلك في الأرض، على سعتها، مكاناً آمناً يسكنه من البشر من يحمل في قلبه بذرة خيّرة تبذر من معينها السعادة والحبّ والأمن لجيرانها وأبناء ملّتها وعشيرتها من فيض ذلك المعين الطاهر الصادق المبرّأ من كلّ عيب ودنس.

(٣) العبدّى: العبيد. الموالي: الملوك والسّادة. الصميم: العربي الخالص النسب. يحكم الشاعر على مجتمعه حكماً جائراً، فقد تساوى سائر البشر بالبهائم لكثرة العبيد في مجتمع غلب عليه عنصر الرقيق في كلّ مجالات الحياة، ومن هؤلاء من تملك بالخديعة والغدر والخيانة، واختلط هؤلاء بالعرب الخلّص ففسدت طباعهم وتعلّموا فنون الغدر لطول العشرة للعبيد فتطبّعوا بطبائعهم وفسدت سرائرهم، فأشبهوا البهائم.

(٤) و (٥) يتساءل الشاعر عن تلك اللعنة المرضية من تحكّم العبيد في مصائر الأحرار إذا طرأت حديثاً على مجتمعه أم أنها متأصّلة فيه من زمن بعيد وبالتالي أنها مرض مزمن لا علاج له ولا يُرجى له شفاء؟ ولقد شاهد الشاعر عجباً في أرض مصر، فالناس =

كَـــأَنَّ الأَسْـــوَدَ الـــلَّابِـــيَّ فِـــيـــهِـــمْ
غُـــرَابٌ حَـــوْلَـــهُ رَخَـــمٌ وَبُـــومُ[١]
أُخِـــذْتُ بِـــمَـــدْحِـــهِ فَـــرَأَيْـــتُ لَـــهْـــواً
مَـقَـالِـيَ لِـلأُحَـيْـمِـقِ يَـا حَـلِـيـمُ[٢]
وَلَـــمَّـــا أَنْ هَـــجَـــوْتُ رَأَيْـــتُ عِـــيًّـــا
مَـــقَـــالِـــيَ لاِبْـــنِ آوَى يَـــا لَـــئِـــيـــمُ[٣]
فَـــهَـــلْ مِـــنْ عَـــاذِرٍ فِـــي ذَا وَفِـــي ذَا
فَـمَـدْفُـوعٌ إِلَـى الـسَّـقَـمِ الـسَّـقِـيـمُ؟[٤]

= هناك يتصرّفون في حياتهم وأحكامهم تصرّف العبيد، فإذا به يُحسّ أنه غريب يتيم وسط تلك الكتل البشرية من لحم ودم ترتهن وتأتمر بأمر عبد زنيم.

(١) اللابي: نسبة إلى اللاب، من بلاد النوبة. الرخم: من جوارح الطيور الكبيرة الجثة الوحشية الطباع. لم ير الشاعر في مصر سوى كافور، إنه غراب أسود، نذير شؤم وغربة ووحشة لا يألف الناس ولا يألفونه، إنه وسط حاشية على شاكلته من بوم يسكن أفراد سربها ديراً تخلّى عنها أصحابها لفساد بيئتها وما فيها من عيوب، وفوق ذلك فهناك إضافة إلى تلك الأسراب طيور الرخم المتوحّشة التي لا تُوفّر الجيف المهترئة تنهش ما بقي من لحومها بشراهة وعنف.

(٢) يعرض الشاعر مشكلته مع كافور، لقد كان مجبراً على مدحه، فإذا به يلهو معه ساخراً منه يصبّ عليه الفضائل التي يفتقدها فيه ويكيل له المديح بالإكراه.

(٣) العيّ: العجز عن النطق السليم والفصيح. يرى الشاعر أنه قد قصّر بهجاء كافور، فلم يفه حقّه في الهجاء، فإذا به يُصاب بالعيّ، لسبب ما تملّكه من حنق وغيظ يودّ لو استطاع محو كافور من الوجود لفعل، ولكن ليس بيده حيلة فلجأ إلى هجائه والسخرية منه.

(٤) السقم: المرض. السقيم: المريض. يُحاول الشاعر أن يسوغ لنفسه هجاء كافور، فالأعذار موجودة لديه، ولكنه يبحث عمّن يعذر في ما يفعل، فالأمر أشبه بمرض حلّ بجسد ضعيف لا يقدر على دفعه إلّا بما أوتي الشاعر من عتاد وسلاح يردع الباغي الظالم عن ظلمه.

إِذَا أَتَـــتِ الْإِسَـــاءَةُ مِـــنْ وَضِـــيـــعٍ
وَلَـــمْ أَلُـــمِ الْـــمُـــسِـــيءَ فَـــمَـــنْ أَلُـــومُ؟[١]

صدق الورد

قال يمدح في يوم الجلسان وقد نثر عليهم الورد وهم قيام بين يديه حتى غرقوا فيه:

[المنسرح]

قَـــدْ صَـــدَقَ الْـــوَرْدُ فـــي الَّـــذِي زَعَـــمَـــا
أَنَّـــكَ صَـــيَّـــرْتَ نَـــثْـــرَهُ دِيَـــمَـــا[٢]
كَـــأَنَّـــمـــا مَـــائِـــجُ الْـــهَـــوَاءِ بِـــهِ
بَـــحْـــرٌ حَـــوَى مِـــثْـــلَ مَـــائِـــهِ عَـــنَـــمَـــا[٣]
نَـــاثِـــرُهُ الـــنَّـــاثِـــرُ الـــسُّـــيُـــوفَ دَمـــاً
وَكُـــلُّ قَـــوْلٍ يَـــقُـــولُـــهُ حِـــكَـــمَـــا[٤]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٤. يرى الشاعر أن من حقّه أن يصبّ نار هجائه على لئيم وضيع النسب أساء إليه فلا بدّ له من أن يشفي ما في نفسه من غضب وحنق عليه، لذا فعليه أن يوجّه إليه كلّ أسلحته المدمّرة.

(٢) الديم، الواحدة ديمة: المطر الدائم في سكون. يرى الشاعر أن الورد صادق في مقولته من أن الأمير لكثرة ما نثر من الورود في المكان وعلى شاغليه، فإذا بالمنثور كأنه مطر دائم يسحّ عليهم برقّة وسكون.

(٣) وردت الأبيات الخمسة التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥١. يروى «مازج» بدلاً من «مائج». العنم: شجر ذو ثمرة حمراء يشبه به بنان النساء المخضوب. يتابع الشاعر رسم صورة المجلس، فقد تناثرت الورود تاركة عطرها ينفث أريجه وعبيره في ذلك الجوّ البديع، فإذا ببحر من حمرة تسبح به العيون وهي في حيرة حيثما التفتت الأنظار أين يُمكن أن تستقرّ.

(٤) يمدح الشاعر ممدوحه، إنه مرفّه بما نثره من الورود، ويدلّ ذلك على ذوق رفيع، وهو في نفس الوقت شجاع بطل ينثر سيوفه في أعدائه وقد لطّخت بدمائهم، كما أنه يمتاز بالحكمة، فأقواله حكم تنمّ عن تجربة وحصافة لديه ومعرفة في شتّى شؤون الحياة.